ألعاب مارس وحملتنا آزوف

كان بطرس يشارك في مراسيم استقبال السُفراء والمآدب في الكريملين نـزولًا عند رغبة أمه، لكنه يتملص منها كلمـا حانت الفرصة، ويتذرع بمختلف الذرائع ليذهب إلى أصحابه، أو إلى الأجانب لكي يطلع على شيء ممتـع، أو يصنع شـيئًا نافعًا في الحـال أو فيما بعـد، وكانت تثقل عليه الواجبات الرسمية المرتبطة بالمراسيم الموسكوبية القديمة الرزينة، وبدلات السـهرات والخطب الطنانة، ويقول المؤرخ الرُوسـي كلوتشيفسكي: لم يكـن «بطرس يطيق أي أثر للتقييد والرسميات، فهذا الإنسـان المتسـلط الذي تعود على الشـعور بالسِّيادة في كل مـكان وزمان يرتبك ويتحير في المواقف الاحتفالية، وتتعسـر أنفاسـه، و يحتقن وجهـه، ويتصبب العرق منـه عندما يقف أمام العرش في حلة القياصرة مضطرًا إلى سماع هذر رفيع اللهجة من مبعوث يقدم نفسه بحضور الحاشية».

كان القيصـر في منتهـى الحركـة والعجلـة والنشـاط مندفعًا بحب الاسـتطلاع، وكأنه يخشى أن يتأخر ويفوت شـيئًا مهمًا للغاية، لذا تراه يسـرع على ظهـر حصانـه إلى الأماكن الـتي يخبرونه فيها بشـيء جديد عليه، أو يصنعون له ما ينفع ويفيد.

ويبـدو أنه أدرك آنـذاك قصور تعليمه فراح يتعلـم على يد الجميع في كل مـكان، وآثـار ذلك انتبـاه معاصريـه، بعضهـم كان ينظر بخوف وحـيرة إلى تصرفـات القيصـر ونوازعه غـير المفهومـة، فهو بدلاً مـن الحياة الوادعـة وفقًا للعادات المتبعة منذ القدم، وطبقًا لقواعد السـلوك في بلاط موسـكو، وهي قواعد مهيبة رزينة، تراه يـتراكـض كالمهووس ويلتقي بأناس ما أنزل الله بهم من سلطان، وخصوصًا الزنادقة «اللاتينيين» الأجانب، ولا يسـتنكف عـن الإمسـاك بالفأس أو الطبل بنفسـه، والمشـاركة في بنـاء سـفنية، أو إطلاق النفير داعيًا إلى القتال في سـاحة ألعـاب مارس، أو الانتماء إلى شلة ممن لا حسب لهم ولا نسب، فيحتسي معهم الخمر ويناقش الأمور وسـط الصخب والضجيج، والبعض الآخر، مـن روس وأجانب يقدرون

الحاكم الشاب حق قدره، و يحترمون قابلياته ومواهبه وميله إلى الجديد وولعه بالأسطول والصنائع ونواياه التي تتجلى في جميع ألعاب التسلية التي علمت الجنود والضباط على الانضباط والفن العسكري.

ولم يكن بطرس مهتما بقضاء أوقات الفراغ فقط، وإشباع حب الاستطلاع، بل كان يتعلم من الآخرين، ويعلمهم في الوقت ذاته، يعلم الرُوس بالدرجة الأولى، ويعهدهم للمآثر والأفعال المجيدة المنتظرة.

عندما يبدي البعض رأيهم في بطرس الأكبر يقعون أحيانًا في خطأ مزدوج بشأن وجهة نظره فيما يخص دور مواطنيه والأجانب في كل ما أقدم عليه من إصلاحات، فهم من جهة يقولون بإنه اعتمد على الأجانب في كل شيء، ووثق بهم وحدهم فيما يخص مخططاته ونواياه ـ وكان يأخذ عن الغرب كل ما يحتاج إليه دون تفريق الأسطوات والأفكار والتصاميم ـ ومن جهة أخرى يقولون إن القيصر كان يستهين بكل ما هو روسي ولا يثق بالرُوس، ويعتبر كل ما هو محلي متحجرًا جامدًا متخلفًا، أما في الواقع فالأمور أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير، فكل الدلائل تشير إلى أن هذا الإنسان النشيط الموهوب كان منذ نعومة أظفاره يفكر في روسيا موطنه، ويسعى إلى السير بها في دروب جديدة بمعونة الرُوس قبل غيرهم، كان يريد أن يحرك المجتمع الرُوسي بإرادته وطاقاته، وبالفلقة عند الاقتضاء، كان مستاء من جوانب كثيرة في هذا المجتمع، ويريد تصحيح الكثير وتجديده، ولكنه ما كان ينوي تحويل روسيا إلى نسخة مشوهة لبلد آخر مثل السويد أو هولندة أو فرنسا أو بريطانيا، ثم إن ذلك شيء مستحيل لا يمكن تحقيقه لا في ذلك الزمان ولا قبله ولا بعده، وتلك حقيقة فهمها أيضًا الأجانب الذين تعاون معهم بطرس بدرجات متفاوتة، فهو عندما استعان بمعارفهم وخبرتهم التي لا تخلو من الشوائب (حيث جاء إلى روسيا كثير من المغامرين والكسالى والطفيليين من الغرب، ممن نعتهم كلوتشيفسكي «بالمشردين الأعاجم») لم يكن يثق بهم جميعًا دون تفريق، بل كان يأخذ كل ما هو قيم وضروري ممن يقدرهم رفيع التقدير، وكان يرغب أبناء جلدته على القيام بالشيء ذاته،

ويهتم بجعل هؤلاء الأخيرين يتقنون كل ما هو ضروري وينفعون روسيا ويعتمدون على أنفسهم وليس على الأجانب.

ومن بين الأجانب الكثيرين الذين عرفهم في تلك الحقبة كان يقدر أكبر التقدير و يحب - دون شك - فرانس ليفورت، ذلك السويسري الحيوي المرح الطيب القلب الذي له تأثير كبير على بطرس، فقد قرّبه القيصر وجعله أميرالا (عندما لم يكن في البلد أسطول!) وأنعم عليه بالهبات، لكن ليفورت لم يخيب أمل القيصر ولم يعمل، مثلاً، على تقريب الأجانب والتضييق على الرُوس، بالعكس، أوحى للقيصر الشَّاب أنه بحاجة إلى معاونين جيدين موهوبين من الرُوس قبل غيرهم، وكان بطرس في الحقيقة يعمل بهذه النصيحة دومًا مع إقباله الشديد على الاستفادة من معارف ومواهب الأسطوات والخبراء والعلماء الأجانب.

وقد استولت هذه الأفكار والمطامح على القيصر الشاب الذي تهيأت له أخيرًا إمكانية تحقيق ما يريد، لكن التحقيق الفعلي لا يزال بعيدًا، وهو يتطلب عملاً تمهيديًا كبيرًا، وكان المقيم الهولندي فون كيلر، وهو أحد الدبلوماسيين الأجانب الذين تواجدوا في موسكو أثناء الأيام العاصفة التي حدثت فيها المناوشة السياسية بين بطرس وأخته، يراقب القيصر في أكتوبر ١٦٨٩ خلال عودته مع حاشية كبيرة من دير ترويتسا إلى العاصمة، وسجل هذا الدبلوماسي النابه الشديد الملاحظة في تقريره إلى وطنه: «إن القيصر بطرس يتحلى بذكاء نادر وعين ثاقبة، ويتميز في الوقت ذاته بقدرة على كسب ودّ الآخرين، ويتحلى بميل شديد إلى الشؤون العسكرية، وينتظر الناس منه أعمالاً بطولية، لذا يتصورون بأنه حان الوقت لكي يحصل التتر على زعيم حقيقي لهم». (يطلق كيلر اسم التتر على جميع الرُوس من رعايا الدولة الموسكوبية).

هذا التقييم صائب على العموم، وليس فيه غير تسرع واحد، هو أن كيلر يعتقد أن بطرس «كزعيم حقيقي» سيبدأ حالاً مع رعاياه «بالأعمال البطولية»، وانطلاقًا من خبرة تحليل شخصية وأعمال بطرس الأكبر طوال أكثر من قرنين يقيم المؤرخ الرُوسي س. سولوفييت قابليات

ومواهب القيصر الشاب تقييما أصح: «كان بطرس، وهو في السَّابعة عشرة من العمر، غير مستعد بعد لإدارة الدولة، كان يواصل التعلم والتربية بنفس الوسائل التي عثر عليها بنفسه والتي تناسب طباعه، كان القيصر الشاب لا يزال يفكر بالألعاب، أما الرجل العظيم فقد ظهر فيما بعد، وعند ذاك فقط بزغت في ألعاب الفتوة بذور الأعمال الجليلة».

غدا زمام السُلطة في يدي ناتاليا كيريلوفنا، أم بطرس، لكنها، كما يقول كوراكين، «لا تتحلى بعقل وفير ولا تجيد الحكم»، لذا عهدت بالأمور إلى أقربائها وأقرباء ابنها والمقربين إليهما، وغدا شقيقها ليف ناريشكين البالغ من العمر ٢٥ عامًا رئيسًا لمديرية العلاقات الخارجية وللحكومة في الواقع، وهو رجل متكبر متهور لا يتحلى بالذكاء، ومدمن على المسكرات، وكان الرجل المقرب الآخر هو البويار تيخون ستريشنيف، وهو أيضًا من رجال البلاط الذين لا يتحلون بالذكاء، بل هو شرير مراوغ من«أصحاب الدسائس»كما يقول كوراكين، وكان من أذكى الحاكمين الجدد الأمير بوريس غوليتسين الذي ظل كما كان رئيسًا لمديرية قصر قازان يتولى شؤون منطقة الفولغا، وقد تدهورت الأمور فيها حتى كادت تصل إلى خراب مطبق، ثم إن كل هذه الشلة التي انضوى تحت لوائها كذلك آل لوبوخين، أقرباء بطرس من جهة زوجته قد انهمكت في اختلاس أموال الدولة والناس، وحذا حذوها سائر البويار والنبلاء، وموظفي المديريات في العاصمة والأطراف، وبدأ «حكم غير نزيه» و«نهب فظيع واختلاس رهيب لأموال الدولة».

وتحلقت حول بطرس «شلة» خاصة به في بريوبراجينسكويه و«حي العجم» الذي أخذ يتردد عليه أكثر فأكثر، ففيه يقيم الجنرالات والضباط الذين أشركهم في «ألعاب التسلية»، بالإضافة إلى مختلف الأسطوات والصنَّاع، وكان بطرس معجبًا بالجنرال باتريك غوردون الخبير بالشؤون العسكرية وتنظيم الجيوش الأوربية، وهو رجل مطواع قليل الكلام ومخلص وأمين، وكان القيصر يتردد عليه كثيرًا ويتناول طعام الغداء أو العشاء في منزله، ويبيت الليل فيه مع أصحابه. وكان «وزير

الولائـم واللهـو» محبوب القيصر ليفورت مسـتعدًا دومًا لإعداد مسـتلزمات اللهو والتسـلية، حيث يقيم الولائم والحفلات الراقصة، وينظم اللقاءات مع آنا مونس، وهي من نسـاء «حي العجم»، امرأة مرحة ذكية، نشـيطة حادة اللسـان، بالإضافة إلى مـا تتحلى به من جاذبية، خلافًا لسـائر الحسـناوات الرُوسيات، حتى زوجة بطرس، اللواتي يتميزن بالتحجر والوساوس والخنوع والملل والحقد والحماقات، وكان ولع القيصر الشـديد قد أبعده نهائيًا عن زوجته يفدوكيا مع أنها ولدت له ابنه الكسي.

وكان مينشـيكوف أقرب الـرُوس إلى القيصر، وهو مـن أصل وضيع، لكنه شاطر يجيد الخدمة، ومع أنه أمي جاهل (لا يجيد حتى كتابة اسمه)، فإنـه مخلص إخلاص الكلب لصاحبه، وقد بدأ الخدمة من منصب بسـيط، مراسل ضابط، حتى وصل إلى منصب القائد العام للجيش و«الحاكم الذي يضاهـي القيصـر»، ويأتي بعده ابراكسـين الذي صار أمـيرًا فيما بعد، وغولوفـين قائد «قوات التسـلية»، وغولوفكين الذي صار مستشـارًا فيما بعد، وشـغل مكانـة خاصة الأمير فيودور رومودانوفسـكي القائد العام لفوجي الجند، والملقب «بملك بريسـبورغ والقائـد العام فريدريك»، وفيما بعـد لُقب «بالأمـير الحاكـم»، وكان بطرس يسـميه مازحًا «بالسير»، و«الكونـغ» أي الملـك ويقدم له تقاريره عن سـير الأمور بوصفـه واحدًا من مرؤوسـيه، ذات مرة صادف بطرس «الأمير الحاكم» في الطريق، ونسى أن يخلع قبعته بحضوره، لذا تلقى توبيخًا شديدًا، استدعى رومودانوفسكي - «ومظهره كالغول الرهيب وطباعه طباع الطاغية المستبد» حسب أقوال كوراكين - القيصر وظل جالسًا بحضوره وانهال بالتوبيخ والتقريع على المدفعي بطرس مخائيلوف (هكذا كانوا يسمون بطرس في «الشلة»):

- يـا إلهي، مـا هذه الكبرياء، منذ متى صار بطـرس ميخائيلوف لا يخلع القبعة بحضوري؟

وبالإضافـة إلى هـذه الواجبـات الهزليـة كان رومودانوفسـكي يـؤدي واجبـات أخرى أكثر جدية، فهو رئيس مديرية بريوبراجينسـكويه (مقر القيصـر في البدايـة) ومديـر التحريات السياسـية، كان «وزير السـياط

والتعذيب وغياهب السجون» هذا يثير رعب كل الذين تقع عليهم يده، فهو يحب بنفسه أن يستجوب ويتحرى، ويعاقب «العصاة» وهواة الكلام الطليق عن السياسة وشؤون البلاط وسلوك القيصر، وكتب فيبر - سفير براونشويه في بلاط موسكو - عن رومودانوفسكي بأنه «كان يعاقب المحكومين دون أن يأخذ رخصة من أحد، ولا جدوى من الشكوى من أحكامه»، وكان بطرس يثق به بالكامل في هذا المجال أيضًا لأن الأمير الحاكم «لا يضاهيه أحد في إخلاصه لصاحب الجلالة»، زد على ذلك أن نزاهته وصفاء ذمته يميزانه عن سائر الموظفين الفاسدين، ومختلسي أموال الخزينة مثل مينشيكوف وغيره من الذين قربهم بطرس وأحبهم.

وفي «سوح القتال» في بريوبراجينسكويه كان «القائد العام فريدريك» يواجه آمر أفواج القوات الخاصة بوتورلين، وهو أيضًا «قائد عام» و«ملك» لبولونيا تارة وسيميونوفسكويه تارة أخرى (فإن مقر قيادته أو «عاصمته» سيميونوفسكويه)، وهو «رجل شرير سكير مرتش»، وكان مع عساكره لا يطيقون جند بريسبورغ، فإن مناوراتهم ومعاركهم الاستعراضية التي تستخدم فيها - بالمناسبة - البنادق والمدافع والعبوات النَّاسفة والقنابل، غالبًا ما تتحول إلى عراك فعلي، وكان كلا القائدين العاملين قبيل المعركة يقفان عادة على ضفتي نهر ياوزا، وينهالان على بعضهما البعض بالشتائم والسباب والإهانات «لأجل تأليب» جنودهم، واستثارتهم بالشكل اللازم، وبعد ذلك تبدأ التدريبات العسكرية، تحرك القوات، واحتلال المواقع، وحفر الخنادق والأخاديد، والقصف المدفعي، وإطلاق نيران البنادق، وأخيرًا الهجوم والاقتحام أو المعركة العامة، وينتهي القتال عادة بانتصار جيش «القائد العام فريدريك» وهزيمة القوات الخاصة وتأسير ملك سيميونوفسكويه، وإقامة مأدبة مشتركة للغالبين والمغلوبين.

كان بطرس من أنشط أفراد «الشلة» وأكثرهم مرحًا، وكان يعامل سائر أفرادها ببساطة وود بدون ذكر المراتب والألقاب، ويطالبهم بأن يعاملوه بالمثل، كانت حاشية بطرس تتكلم خلط لغات ولهجات،

فإلى جانب الرُوسية كانوا يتكلمون ويكتبون بالألمانية والهولندية والفرنسية والإنجليزية، وحتى مينشيكوف الذي لا يكاد يجيد كتابة اسمه بالرُوسية كان يتلفظ بعض الكلمات الأجنبية في مخاطبة بطرس، ثم إن ليفورت الذي يجيد عدة لغات أوربية تعلم الرُوسية بعض الشيء وصار يكتب إلى القيصر كلمات روسية بأحرف فرنسية.

كان القيصر في حركة دائمة، في جده وهزله، يقيم الاستعراضات وينظم الألعاب العسكرية والألعاب النارية التي يعد متفجراتها بنفسه، ويشارك في بناء السُفن والقوارب ويقوم بتدشينها وبتجريب المدافع الجديدة، ويتعلم على أيدي المهندسين والمدفعيين وأساتذة الرياضيات والنجارين، ويستعير الكتب من غوردون وغيره ويبعث في طلبها من الخارج، وفي الفرص بين الأعمال والدروس يقيم مع شلته مآدب عند غوردون أو ليفورت، أو غوليتسين أو عند خاله ناريشكين، وأمر بإنشاء قصر على نهر ياوزا من أجل ليفورت المقرب إليه، وفي هذا القصر كانت الشلة تنزوي ثلاثة أيام ـ كما يقول كوراكين المقرب إلى القيصر وإلى الشلة المذكورة ـ «لأجل سكر وعربدة يفوقان الوصف حتى أن البعض ماتوا بسببهما»، ويبقى الآخرون يئنون ويتضورون ألمًا عدة أيام، أما بطرس فكان في اليوم التالي يمارس أشغاله وكأن شيئًا لم يحدث.

وعندما كان بطرس يتحدث ببساطة مع أصدقائه وأنصاره المقربين أثناء الولائم لم يكن ينسى أبدًا أنه قيصر، وإذا تفوه أحد أفراد «الشلة» بكلمة غير لائقة، فإنه يشتاط غضبًا في الحال، وعندما تستولي عليه نوبات الغضب يغدو رهيبًا بالنسبة للآخرين الذين ينتابهم الرعب، فترتعد فرائضهم، وكان يهدئه عادة ليفورت، ثم فيما بعد، مينشيكوف وبكاترينا زوجته الثانية.

وكان بطرس مولعًا أشد الولع بألعاب نبتون (إله البحر)، ومارس (إله الحرب)، ولكي يغادر الكريملين ويذهب إلى أصحابه وأسطواته كان يتذرع بضرورة الرحيل إلى دير ترويتسا لحضور الصلاة (وذلك عذر مشروع في رأي أمه والبطريرك)، أو يتحجج بحجة أخرى، ذات مرة غادر

البلاط وتسبب رحيله في توتر الوضع، فقد وصل سفير بلاد فارس وكان يتعين على القيصر أن يستقبله، في حين لم يكن القيصر هناك، بحثوا عنه حتى وجدوه في بحيرة بيرياسلافل، وتوجه إلى هناك كل أعضاء الحكومة تقريبًا ليقنعوه بالعودة إلى العاصمة، وإلا سيزعل السفير كما قالوا.

حاولت ناتاليا كيريلوفنا والبطريرك يواكيم وسواهما من الغيارى على الأعراف القديمة ونقاوة الدين أن ينصحوا القيصر بالتعقل، و يجعلوه يلازم الكريملين قريبًا من الأسرة، ويلتزم بالواجبات الرسمية، ويقنعوه بتقليل الاختلاط مع الأجانب.

وفي عام ١٦٩٠، في السنة التالية من تنحيه صوفيا ولدت زوجة القيصر يفدوكيا ابنها الكسي، وبهذه المناسبة أعد الأب الشاب في الصالة المضلعة في الكريملين «مأدبة المسرات» ودعا إليها كثيرًا من الضيوف، وبينهم غوردون، وطلب البطريرك بلهجة حادة عدم دعوة هذا «الزنديق»، فتنازل له بطرس على مضض كيلا يغيظه ويغيظ أمه، لكنه أقام في اليوم التالي وليمة جديدة في مقره خارج المدينة، وكانت في الواقع خصيصًا من أجل غورودون، حيث أبدى القيصر عناية بالغة به.

وفي نفس تلك السنة توفي بواكيم في آذار (مارس) وتوسل يواكيم في وصيته إلى القيصرين، باسم الإله الواحد القهار، بألا يخالطا الأجانب الزنادقة ولا ينيطا بهما مناصب قيادية في الجيش الرُوسي، «ولا يستخدما العادات الأجنبية، ولا يجريا تعديلًا على الثياب وفقًا للأذواق الأجنبية»، فالبطريرك كان مرتعبًا لأن هؤلاء الزنادقة الملاعين يأكلون الحشيش «الزلطة مثل الدواب»، ويتكلمون بلغات لا يفهمها الأرثوذكس (وهذا ما جعل الناس من أمثال يواكيم يعتبرون الأجانب الغربيين «أعاجم» لا يجيدون التكلم بلغتهم الرُوسية).

ظل بطرس يتحمل هذه الأمور لحين من الوقت، لكنه أخذ يتصرف على هواه بالتدريج ويطبق المستحدثات الضرورية بمزيد من السرعة، في البداية

تجلى ذلك في تصرفاته الخارقة للعادة، كان يقدم عليها تارة، ويتنازل عنها تارة أخرى منتهزًا الفرصة الملائمة، فبعد شهر من وفاة يواكيم بعث في طلب بزة أجنبية مريحة في الحياة المنزلة، وهي عبارة عن قمصلة ألمانية وجوارب وحذاء، بالإضافة إلى شعر مستعار، وسيف معلق بسير مطرز بالذهب، لكنه كان يرتدي ذلك أثناء التردد على حي العجم فقط.

وسرعان ما دعت الحاجة إلى انتخابات بطريرك جديد في المجتمع الكنائسي، وبدأ البحث عن مرشح مناسب، واقترح بطرس ترشيح ماركيل مطران بسكوف، وهو رجل ذكي متعلم، إلا أن والدة القيصر والمقربين إليه اعترضوا على ترشحه، وجاء اعتراضهم بروحية يواكيم، فإن ماركيل هذا يتكلم باثنتين من «لغات البرابرة» ـ اللاتينية والفرنسية، وهو متعلم للغاية، زد على ذلك أن لحيته قصيرة جدًا... وتنازل بطرس هذه المرة أيضًا، فانتخبوا أدريان مطران قازان الذي يتصف بخصال يريدها الغيارى على الأعراف القديمة.

أما في بريوبراجنسكويه وبحيرة بيرياسلافل فقد جعل بطرس كل الأمور تسير على ذوقه وهواه، وكان قد صمم على اجتياز كل درجات الخدمة العسكرية ابتداء من أدنى الرتب، وشارك في معارك التسلية وهو في تلك الرتب، وفي إحدى تلك المعارك انفجرت عبوة ناسفة قربه فأصيب وجهه بحروق شديدة.

وفي ٤ أيلول (سبتمبر) ١٦٩٠، وقع في معركة أخرى عدد كبير من الجرحى، وأصيب غوردون هذه المرة بحروق في الوجه وكدمات في الساق، فلازم الفراش حوالي أسبوع، وشارك في «معارك» أيلول أفراد قوات التسلية، وخيالة النبلاء من جهة، وفوج من القوات الخاصة من جهة أخرى، وفي السنة التالية جرى «القتال» بين قوات أكبر، بين جيشين أحدهما من القوات الخاصة والآخر من فوجي التسلية والجند، ووقع «القائد العام» بوتورلين أسيرًا في يد «القائد العام فريدريك»، وكان عدد الجرحى أكبر، بل وقتل الأمير إيفان دولغوروكي، وهو من المقربين إلى القيصر.

كان غوردون الذي يقدره القيصر رفيع التقدير - وهو إنسان واسع الاطلاع بارد الأعصاب حسن التنفيذ - ينظر إلى «ألعاب التسلية» بعين ساخرة، وقد نعتها في مذكراته بأنها باليه عسكري، لكن المعارك الاستعراضية في البر ومناورات الأسطول الوليد قد فولذت كوادر الجنود والبحارة والضباط والجنرالات والأميرالات، وربت المهارات والخاص القتالية.

وفي بحيرة بيرياسلافل أنشأ براندت فرقاطتين صغيرتين وثلاثة يخوت، وبنى بطرس بنفسه في نهر موسكو سفنًا مجذافية غير كبيرة، وفي نهاية صيف ١٦٩١، وضع القيصر في بحيرة بيرياسلافل أساس بناء أول سفينة حربية روسية، وكلف ببنائها رومودانوفسكي الذي منحه القيصر رتبة الأميرال، ونقلت إلى هناك المواد والأغذية اللازمة، وساهم بطرس بنفسه في بناء السفينة برغبة كبيرة، وفرغوا من إنشاء السفينة، وأنزلوها إلى الماء، إلا أن سعة البحيرة لم تكن كافية للمناورات، وفي عام ١٦٩٣ سافر القيصر مع حاشية كبيرة إلى أرخا نجلسك التي كانت آنذاك الميناء البحري الوحيد في روسيا، ورأى لأول مرة البحر والسُفن الحقيقية الكبرى، فقد كانت في المرفأ سفن إنجليزية وهولندية وألمانية جاءت بالجوخ والأصباغ والخردوات، وكانت البضائع الرُوسية (الأخشاب والفراء والكافيار وتيل القنب والجلود) تشحن إلى سفن أخرى، وتفقد بطرس المرفأ باهتمام كبير وسأل عن كل التفاصيل وراح يفكر في بناء الأسطول الرُوسي وتوسيع التجارة، وبواسطة ليفورت طلب سفينة كبيرة من الخارج وكلف مدير بلدية امستردام فيتزين بتجهيزها، وبناء على أمر القيصر بدأ في أرخا نجلسك إنشاء سفينتين، وقام القيصر لأول مرة في حياته برحلة في البحر الأبيض البارد المكفهر، وعاد إلى موسكو في الخريف.

وفي كانون الثاني (يناير) من العام التالي توفيت والدة القيصر التي يكن لها الحب والحنان والاحترام، وتحمل مصيبته في وحدة وألم وصمت، ولم يحضر مراسيم التشييع، كما لم يحضر مراسيم دفن ابنه الثاني الكسندر الذي توفي قبل ذلك ولم يتجاوز شهره السَّابع، ولعل القيصر لا يريد أن يكشف عن ضعفه أمام الناس عندما يفقد أحدًا من أهله الأعزاء عليه، وفي اليوم الثالث بعد الدفن جاء إلى قبر أمه وبكى عليها وحيدًا.

لكن الحياة تسير، ونرى بطرس يتوجه من جديد إلى ارخا نجلسك في نيسان (أبريل)، وقد أرسل إلى هناك ذخيرة وسلاحًا. أكثر من ثلاثين ألف كليو غرام من البارود وألف بندقية. وكتب إلى متصرفه في أرخا نجلسك وأصدر إليه الأوامر باسم «القائد العام» و«الأميرال»رومودانوفسكي، ورافقه ٤٠٠ شخص، واستقل السُفن النهرية في دفينا الشمالي وهو يعلل نفسه بالآمال وينعتها بالأسطول، واستحدث له علمًا بثلاثة خطوط أحمر وأزرق وأبيض، وفرح القيصر عندما وجد في الميناء السفينة جاهزة، فأنزلوها إلى الماء في ٢٠ آيار (مايو)، وبعد شهر ا نجزوا بناء السفينة الثانية، وأنزلوها إلى الماء أيضًا (في ٢٨ حزيران- يونيو)، وفي ٢١ تموز (يوليو) وصلت من هولندة السفينة التي بنيت حسب طلبه، وركب البحر مرتين، في آيار وآب (أغسطس)، في البداية على يخت «القديس بطرس»، ثم على السُفن، وفي كلتا الحالتين تعرض للخطر بسبب الزوابع، وسوء قيادة السُفن، لكنه لم يصب بمكروه، ورغم الخوف والمعاناة (في المرة الأولى استعد بطرس ومرافقوه للموت، وقدموا قربان الأسرار أمام الشماس الذي رافقهم)، أحب بطرس البحر والأسطول مدى الحياة، وكان انزال السفينتين إلى الماء والنجاة من مخاطر البحر مدعاة لفرحة عامة، حيث أقيمت الولائم والأفراح، وكان القيصر مغتبطًا سعيدًا كطفل صغير.

وبعد كل الاختبارات والاحتفالات في الأسطول الرُوسي الذي كان في طور البناء، ظهر أميرال آخر هو ليفورت ابن سويسرا الرائعة الخالية من البحار... وفي الخريف عاد بطرس إلى موسكو وغرق في الأشغال من جديد، ففي قرية كوجوخوفو بضواحي موسكو أنشأ استحكامات مع كوى للرماية وحولها سد ترابي بارتفاع ٣،٥ أمتار وخندق، واعتصم فيها جيش القوات الخاصة بقيادة بوتورلين، وحاصرتها واقتحمتها أفواج جديدة بقيادة رومودانوفسكي (٧،٥ آلاف شخص).

وقبل بدء تلك المعركة أقام بطرس استعراضًا عسكريًا فريدًا من نوعه، فقد اجتاز العاصمة بمسيرة احتفالية، وجيشا روموداانوفسكي وبوتورلين، وقرعت الطبول والنقاريات وتعالت أصوات النايات، ومرت أمام

«القائد العام فريدريك» سرية بأمره بهلوان القيصر ياكوف تورغينيف، وعلى رايتها صورة عنز ووراءها أقزام، وبين مدفعيي فوج بريوبراجينسكي في الأمام يسير القيصر بطرس برتبة جندي أول مدفعية، وقد شارك في المعركة فيما بعد بنفس هذه الرتبة.

واستخدمت كل أساليب خوض الحرب، وأعدت خطتها مسبقًا من قبل غورودون وغيره، وكان هناك سجل لمخططات المواقع والقوافل والقتال، في البداية عقدوا جلسة للمجلس الحربي ناقشوا فيها العمليات الحربية المرتقبة، واستمرت تلك العمليات ثلاثة أسابيع، وشارك فيها على العموم - كما أفاد كوراكين - ٣٠ ألف شخص، ١٥ ألفًا من كل جهة، ويقول هذا المؤرخ أن من المستبعد أن يستطيع أحد من ملوك أوربا أن يعد مناورات أفضل من مناورات بطرس، وأثناء تلك المناورات تفاوض الطرفان، وحفر المحاربون خنادق، وأخاديد ألغام، وشنوا هجمات عديدة.

وبعد تبادل الشتائم بين «القائدين العامين» الواقفين على ضفتي نهر موسكو، جرى نزال بين عملاقين من الأبطال، وبعد ذلك هجم جيش «فريدريك»، واحتل القلعة بسرعة نسبيا، لكن الاحتلال لم يكن حسب الخطة المسبقة، وسرعان ما سحب الجيش من القلعة، واستمر حصارها بلا استعجال وبأقرب صورة إلى ظروف المعركة الحقيقية، وكان الجند وأفراد القوات الخاصة يطلقون النار من المدافع والبنادق، ويقذفون العبوات الناسفة، ويزرعون الألغام ويفجرونها، باختصار كان الحصار والدفاع حقيقيين، ويقول كوراكين «إن ٢٤ شخصًا قتلوا وجُرح حوالي خمسين شخصًا» أثناء المعارك، وقد ساعدت تلك المناورات على تدريب الجنود والضباط، وفي أعقاب المعركة اجتمع كل المشاركين فيها في وليمة في مخيم رومودانوفسكي دفع تجار موسكو تكاليفها.

وفي تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٩١ طلب القيصر أن يجلبوا له ميثاق الكنيسة، فطالع نصه وعمل بعض الوقت في صياغة ميثاق «لشلته» باسم «مجمع السكر والعربدة والمرح»، وقد قلد القوانين والأعراف الكنسية بسخرية بالغة (كان بطرس مؤمنا بالطبع لكنه يكره

أشد الكره القساوسة وآباء الكنيسة بما يتميزون به من تحجر ورياء ورجعية)، وجاء «الميثاق» وثيقة هجاء للمراتب الكنسية، والقساوسة والكهان، وما اعتادوا عليه من سكر ونهم وجشع مفتعل، وغير ذلك من العيوب، لكن بطرس عندما أسس «مجمع السكر والعربدة» ليرص صفوف «شلته» من خلال قد كرر بشكل ساخر نفس التسلسل الهرمي الكنائسي، واستخدام الشكل المطلق الطراز لتنظيم «المجتمع»، وقام بذلك ـ كما يفعل أحيانًا ـ بخشونة وتعسف.

وعين معلمه السابق زوتوف رئيسًا للمجمع، وترأس زوتوف هذا مجلس الكرادلة المكون من ١٢ كردينالًا وجرى في الأول من كانون الثاني (يناير) ١٦٩٢ تنصيبه بمثابة الأمير ـ الأب الروحي ـ «سماحة الكير أيكانيكيتا مطران بريسبورغ، وبطريرك عموم ياوزا، وعموم حي العجم»، وهكذا جمعت هذه التسمية الهزلية بين المنظمة الجديدة لأصحاب بطرس في ياوزا وبين أصدقائه الأجانب في حي العجم، وعندما ينتسب عضو جديد إلى المجتمع يسألونه على الطريقة الكنسية («تؤمن بالله؟»):

ـ تشرب الخمر؟

ـ نعم.

وكانوا يقبلون من يتعاطى المسكرات، ويعلنون من لا يتعطاها، ويطردونه من الحانات وفقًا لميثاق المجمع، وتنص الوصية الرئيسة في الميثاق على تعاطي المسكرات يوميًا، ويمنع منعًا باتًا النوم بذهن صاح، وتنتخب كل المناصب في المجمع وفقًا لإجراءات معينة وصارمة للغاية، فبالإضافة إلى الأمير الأب الروحي والكرادلة توجد مناصب أخرى كالأسقف والأرشمندريت وغيرهما، وشغل بطرس مرتبة متواضعة في سلم «السُّكر» المعقد، فهو شماس أول المجمع، وهدف المجمع هو تمجيد باخوس بالإفراط في الشراب المتواصل، وكان هناك نظام صارم لتعاطي المسكرات، «لخدمة باخوص، والحرص النزيه على الشراب المسكر»،

وكانت هناك كتب خاصة للصلوات والإنشاد وثياب خاصة وكذلك قديسات ورئيسات أديرة للهزل والتنكيت.

وقد شاهد أهالي موسكو، وأهالي بطرسبورغ فيما بعد، حفلات المجون والسُّكر والعربدة التي أقامها المجمع، ففي فترة الأعياد من ميلاد المسيح حتى التعميد كان مئة عضو من أعضاء «المجمع»يستقلون عشرات الزحافات، و يجوبون شوارع المدينة طول الليل منشدين صافرين، ويترددون على المنازل «يباركون» أهاليها الذين يطعمونهم، ويسقونهم، ويدفعون لهم النقود مقابل «التبريك»، ويشربون كثيرًا، وفي الصوم الكبير على العكس، يقيم الأمير- الأب المهرج موكب التوبة، حيث يمتطي أعضاء «المجمع» الحمير والثيران، ويركبون الزحافات التي تجرها الخنازير والماعز والدببة، و يجوبون الشوارع والسَّاحات في معاطف فرائية مقلوبة على بطانتها، وكان تحقير الكنيسة بهذه الصورة لا بد وأن يثير حفيظة المؤمنين ورجال الدين، وكانت تصرفات القيصر هذه قد خلقت له سمعة سيئة في أنظار الكثيرين، ومن ذلك الحين انتشرت بين الناس شائعات تقول إن القيصر هو المسيح الدجال، وأخذ بعض البويار ورجال الدِّين ينشرون الأقاويل عن القيصر، ويستفظعون اختلاطه بالأجانب، ويشجبون مستحدثاته واستهانته بالأعراف والعادات الرُوسية القديمة، فبعد وفاة أمه شارك في ٨ نيسان (أبريل) في مراسيم عيد الفصح، وبعد ذلك لم يره أحد في هذا النوع من المراسيم في الكريملين، وكان الكثيرون يعتقدون بأن «لمجمع المرح» تأثيرًا فتاكًا على نفسية القيصر وحاشيته، فهو كفر وارتداد عن الدين، شأن «مغازلته» للزنادقة من الكاثوليك واللوثريين.

عندما سخر بطرس من عيوب ونواقص رجال الكنيسة «جعل سلطته الشخصية موضوعًا للسخرية» على حد تعبير كلوتشيفسكي، وقد أطلق على رومودانوفسكي نعت القيصر والملك وصاحب الجلالة، بينما نعت نفسه «بالعبد الحقير بطرس» على هذه الصورة كان يمزح القيصر الواثق من نفسه ومن حاشيته ومن سلطته الوطيدة.

كانت تهجمات بطرس على الأفكار والشخصيات التي ولى زمانها، وألعاب مارس ونبتون التي كان يمارسها إنما تخفي - وراء حجاب من التنكيت والحدة والوقاحة الفظة - نواياه الجادة وأفعاله البطولية المرتقبة التي كتب عنها فون كيلر، وفيما بعد تذكر بطرس نفسه آخر لعبة عسكرية، وهي أطول ألعابه وأوسعها من حيث عدد المشاركين فيها فقال: «عندما كنا آنذاك نمارس ألعاب مارس في ضواحي كوجوخوفو لم يكن في أذهاننا شيء سوى اللهو والتسلية، لكن تلك الألعاب غدت مقدمة لأفعال حقيقية».

في تلك الفترة كان القيصر في الثالثة والعشرين، وقد عرف وجرب الكثير حتى ذلك الحين، عرف وجرب الصالح والطالح معًا، دخل معترك الحياة وتفولذ فيه سواء في عام ١٦٨٢ أثناء الانتفاضة في موسكو، أو بعد سبع سنوات عندما انتهت المناوشة مع أخته وأشياعها بانتصاره عليهم، وقد استفاد من الإمكانيات المرتبطة بسلطة القيصر المطلقة (كان القيصر إيفان الذي اقتصر دوره في الكريملين على حضور المراسيم الرسمية يقضي سنواته الأخيرة بهدوء دون أن يتدخل في شيء)، وانتفع منها بالقدر الكامل لصالحه، ولصالح القضية التي كرس نفسه لها دون رجعة، ألا وهي قضية تجديد روسيا وتعزيزها، ورفع منزلتها وعظمتها، ورفع منزلته وعظمته معها، ومما لا شك فيه أن هذا الرجل القوي المتسلط الذي بذل جهده وأجهد نفسه في سبيل وطنه لم يكن يخلو من الزهو والكبرياء ولا ينفر من بلوغ المجد بين معاصريه وأحفاده.

البطل الشاب الذي يلوح أمامنا، عملاقًا من حيث البدن والروح، في أوصاف معاصريه وصور الرسامين، يوسع كتفيه ويشرع «بفعل حقيقي» لاسيما وأن «بذور الأفعال الجليلة» أخذت تنمو وتبزغ، وحان الوقت لرعاية السنابل وجني المحصول.

...في أرخا نجلسك، أثناء الأحاديث مع ليفورت وغيره من أفراد «الشلة»، ناقش بطرس موضوع البحر وضرورته القصوى بالنسبة لروسيا، وقال أصحاب بطرس إن بحر الشمال غير مناسب تمامًا للتجارة الواسعة

والعلاقـات الثقافية مع العـالم الغربي، والطريق إليه بعيد وصعب بسـبب طول المسـافة والبرد الشـديد، وبحر قزوين ـ رغم سـعته ـ ما هو في الحقيقة والواقـع إلا بحيرة، ليس لها منفذ إلى البحار الأخـرى والمحيطات، ولم يبق إلا بحر البلطيق والبحر الأسـود، مع أن بحر الشـمال وقزوين لا يجوز إهمالهما، لكن بطرس في تلك الفترة، في أواسـط تسعينات القرن السَّابع عشر، قرر أن يـؤجـل قضية بحر البلطيق، أما البحر الأسـود فقد تصوره هو وحاشـيته مكانًا مناسبًا تمامًا للأعمال الجادة.

كـان بطرس في فتوته قد قرأ «قصة الزمان»، وهي سجل تاريخي وضعه كاهن من كييف اسمه نسطور في بداية القرن الثاني عشر، وقد أدهشته وأعجبته أخبار حملة الأمير أوليغ على تسارغراد (الأستانة) في بداية القرن العاشـر الميـلادي، فهذا الحاكم بالـذات قاتل قبل بطرس منـذ ثمانية قرون تقريبًـا في تلـك الأماكـن الـتي احتلها العثمانيـون فيما بعد، في أواسـط القرن الخامس عشر، وقد عاث هؤلاء مع تتر القرم فسادًا في الأرض الرُوسية، وراح بطـرس يـفـكـر في «الثأر مـن الأتراك والتتر علـى كل ما ألحقوه من أضرار بروسيا»، و يحلم بتكرار مأثره أوليغ وجنده، والأهم أنه ظلت معلقة قضية العلاقات مع إمارة القرم التي اسـتولت على الأراضي الرُوسية العريقة في سـواحل البحر الأسـود، واسـتمرت في غزواتها وحملاتهـا على الأقضية الحدودية في روسـيا وأوكرانيا، ودأبت عسـاكـر القـرم على اقتياد آلاف مؤلفة من الأسـرى الرُوس، وكـانت موسـكـو ترسـل إلى باخشى سراي جزية بالمال والفراء، وكـانت إمارة القرم تعيق تطوير التجارة الرُوسية في منطقة البحر الأسود الذي كـان يسمى بالبحر الرُوسي في قديم الزمان...

...كـان أوار حمـلـتي القـرم قـد خفـت، والقـائد العام غوليتسـين الذي لم يـعـد بالأمجاد يـرزح في غياهب المنفى، أما بطرس الذي نفـاه إلى هناك فهو يخطـط لحملة في نفس ذلك الاتجاه الجنوبي، ولـكن ليس في اتجاه القرم مباشرة، من خلال السهوب المترامية الأطراف، بل با نحراف نحو اليسار، على نهر الدون إلى مصبه، حيث تقع قلعة آزوف العثمانية.

وفي شتاء ١٦٩٤-١٦٩٥ كان القيصر ليل نهار يناقش خطة الحملة المرتقبة مع أصدقائه وأنصاره، وبالإضافة إلى الملابسات المذكورة أعلاه كان القيصر مدفوعًا بالمطالب الملحة من جانب النمسا وبولونيا شريكتي روسيا في «الحلف المقدس» المناهض للأستانة والذي تشكل في ثمانينات القرن السَّابع عشر، وكان الباطاركة الأرثوذكس اليونانيون الذين اضطهدهم العثمانيون ينادون أيضًا بمكافحة الكفرة، وكتب بطريرك أورشليم دوسيفيوس يلوم موسكو قائلًا: «التتر زمرة تتباهى باستلام الجزية منك، ولما كان التتر من الرعايا العثمانيين، فأنتم أيضًا، والحال هذه، من الرعايا العثمانيين».

وترتبط بالحملة على قلعة آزوف العثمانية التي تسد منفذ الدون إلى بحر أزوف والبحر الأسود مطامح بطرس الشخصية، فإن انتصاره فيها يمكنه - كما تصور - من السفر إلى بلدان أوربا الغربية مكللًا بأمجاد النصر الحربي المؤزر، وبهالة القائد المنتصر، وكان ليفورت يلح عليه دومًا بالسفر، فهو يريد الخير لروسيا ولقيصرها الموهوب الرائع صديقه العزيز، وقد تمكن ليفورت من إقناع القيصر بضرورة السفر إلى أوربا، فقد تحمس بطرس لهذه الفكرة لأنه سيرى الكثير مما هو نافع لوطنه، وله شخصيًا، كي يستخدم فيما بعد كل ما له قيمة في الوطن، ولكن هل يجوز أن يسافر خالي الوفاض؟ سيجد صعوبة، والحال هذه في التعامل مع ذوي الشأن في أوربا، ثم إن الحملة يجب أن تبين بأن ألعاب مارس في بريوبراجينسكويه وكوجوخوفو لم تكن دون جدوى ولم ينظمها هو قيصر روسيا عبثًا، لقد حان الوقت لكي يسطر الجيش آيات البطولة في معارك حقيقية.

وفي ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٦٩٥، صدر لكل العسكريين أمر بالتجمع من أجل حملة على القرم بقيادة البويار بوريس شيريميتيف، وأعلن إبان هذه الحملة تكرار للطريق التقليدي الذي سلكته العساكر في عهد صوفيا وغوليتسين، لكن هذا كان مجرد حيلة أو كما يقال الآن عادة، مجرد مناورة دعائية لستر الهدف الحقيقي، وهو الحملة على

سعد الإسلام، و ذلك هو الاسم العثماني لقلعة آزوف، وكان يتعين تدمير معقل السيطرة العثمانية هذا في مصب الدون.

تحركت عساكر شيريميتيف على امتداد الدنيبر نحو أسفله باتجاه القرم، وكانت لعملياتها أهمية ثانوية، ومع ذلك استولى شيريميتيف الذي غدا فيلدمارشالا فيما بعد على أربع قلاع عثمانية على الدنيبر، حيث دمر قلعتين وترك حاميتين روسيتين في القلعتين الآخريين.

لكن الأحداث الرئيسة جرت شرقي المنطقة على نهر الدون، وقد خصص للحملة على آزوف ٣١ ألف رجل من الأفواج الرُوسية المختارة، نصفهم توجهوا من موسكو في ٣٠ نيسان (أبريل) بالطريق المائي بقيادة غولوفين وليفورت، واستقلت العسَاكر السُفن في أنهار موسكو وأوكا والفولغا، ووصلت إلى تساريتسين في ٨ حزيران (يونيو)، ومن هناك سارت ماشية حتى بلدة بانشين القوزاقية على الدون، وحمل الجنود وسحبوا بأنفسهم المدافع والذخيرة، لأن الوقت لم يتسع لتحضير العدد الكافي من الخيل، وحدث الشيء ذاته لاحيتاطيات الأغذية التي تقرر أن تجمع في بلدة بانشين، فالمقاولون لم يجلبوا الأغذية في الموعد المحدد، ولم يحضروا بأنفسهم، فدعت الحاجة إلى البحث عنهم في مدن أخرى، ولم يكن هناك ملح طعام، واجتمعت العساكر في بانشين بعد جهد جهيد، وكان القيصر ينتظر في هذه البلدة، وا نحدرت مع مجرى النهر حتى وصلت آزوف في ٢٩ حزيران (يونيو)، ووصلت كذلك عساكر غوردون بالطريق البري، وكانت قد تأخرت كثيرًا، بسبب ضرورة مد جسور على الأنهار، وقمع عصيان أفراد القوات الخاصة.

وبدأ حصار آزوف، استمر الحصار ثلاثة شهور، ولم يعد على السلاح الرُوسي بالأمجاد، فإن تنظيم الحملة من البداية فيه عيوب خطيرة، كان هناك أمام أسوار القلعة العثمانية ثلاثة قادة، فلم يكن للجيش الرُوسي قائد واحد، وكان الثلاثة غولوفين وغوردون وليفورت على خلاف فيما بينهم، وانعدم التنسيق بنفس الصورة في العساكر نفسها، وتجلى ذلك مثلًا في اختلاف مواعيد عملياتهم أثناء الحصار، ونفذ صبر «الجندي أول

مدفعية بطرس» كما كان حاله عادة في ألعاب ضواحي موسكو، لكن الجيش الرُوسي يواجه قلعة عثمانية ممتازة، وليس قلعة ألعاب في بريسبورغ، فالقلعة العثمانية مطوقة بصفين من الأسوار الحجرية، وبسد ترابي وخندق، وأمامها على ضفتي الدون برجان تمتد بينهما ثلاث سلاسل حديدية تمنع الحركة في مجرى النهر، وتقف حاجزًا أمام السُفن، ولم يكن هناك أسطول روسي بالمعنى الحرفي للكلمة أثناء حصار آزوف، ولذا وصلت الإمدادات والأغذية العثمانية عن طريق البحر دون عائق، وقد عزز العثمانيون حامية القلعة بعد أن عرفوا بالحملة مسبقًا، ولم تكن ضربات المدفعية الرُوسية شديدة، فالقصف الذي شارك فيه جندي المدفعية الأول بطرس ميخائيلوف لم يلحق ضررًا يذكر بالعثمانيين وتحصيناتهم، وزرع الرُوس ألغامًا تحت تلك التحصينات، لكن انفجارها ألحق بالرُوس أنفسهم أضرارًا أكثر مما لحق بالعدو.

صحيح أن الرُوس استولوا على كلا البرجين، ونظموا هجومين على القلعة في ٥ آب (أغسطس) وفي أواخر أيلول (سبتمبر)، لكنهم لم يحققوا نصرًا، وتكبدوا خسائر كبيرة، ذات مرة فر إلى العثمانيين من المعسكر الرُوسي بحار هولندي اسمه ياكوب يانسين وحدثهم، فيما حدثهم، عن عادة الرُوس في النوم بعد الغداء، فدبر العثمانيون أثناء ذلك هجومًا على مقر ليفورت وقتلوا عدة مئات من الجنود الرُوس النائمين، ولم ينسحبوا إلا بضغط عساكر غوردون الذين وجدوا منفذًا من المأزق، وسقط عدد كبير من الخسائر أثناء الهجمات، وحفر الأنفاق والتفجيرات، بينما كان بطرس يبعث رسائل مهدئة إلى موسكو، إلا أن سوء التحضير للحملة، والاستعجال في الهجمات، وقلة الحذر، وعدم المهارة في بعض الحالات (في الأسطول، وزرع الألغام وإدارة القوات) كل ذلك أرغم بطرس على إصدار أمر بالانسحاب في بداية تشرين الأول (أكتوبر)، واقترن الانسحاب أيضا بخسائر كبيرة بالأرواح، فقد غرق الكثيرون في فيضان الدون، ومات آخرون من الجوع والبرد عندما اجتازوا السهب حتى فالويكي، أول مدينة روسية في الجنوب، وبدأ الشِّتاء مبكرًا، ولم يكن الجنود يرتدون بزة

الشِّتاء، وتبدلت لهجة القيصر في رسائله إلى موسكو، ونعت صراحة الحملة الحربية الفاشلة «بحملة عدم فتح آزوف».

ومن ذلك الحين لم يكن من عادات بطرس أن ينساق وراء اليأس، والقنوط بعد أول هزيمة، فقد تضاعفت طاقاته، واتخذ إجراءات فورية، حيث أناط قيادة القوات البرية بالقائد العام شين، وأناط قيادة الأسطول الذي كان يتعين بناؤه بالأميرال ليفورت، وفي تشرين الثاني (نوفمبر) أعلن عن تجمع المتطوعين من النبلاء، وفي كانون الثاني (يناير) دعى جميع الراغبين، بمن فيهم الأقنان من خدم القصور، إلى الانخراط في الجيش للمشاركة في الحملة الثانية على آزوف، وحصل هؤلاء الأخيرون على الانعتاق فورًا، واستفاد عدد كبير منهم من مرسوم القيصر.

وبعد ذلك أنشأ بطرس أحواض بناء السُفن في فورونيج وضواحيها، ولم يأت اختياره لهذه الأماكن من قبيل الصدفة، فعلى ضفاف نهري الدون وفورونا كانوا من قديم الزمان يبنون القوارب النهرية المسطحة القاع، ويستخدمونها في نقل الحبوب وغيرها من الاحتياطيات إلى قوزاق الدون، ويقيمون الاتصالات معهم طوال القرن السَّابع عشر بكامله، ونمت حول فورونيج أشجار صنوبر جيدة صالحة لبناء السُفن، لكن الكثير منها قد اقتطع، واستخدمت تلك الأشجار هذه المرة أيضًا، وفي الشتاء توجه بطرس إلى فورونيج وتابع بناء السُفن عدة أشهر، واستخدم الفأس بنفسه أكثر من مرة، واقتيد إلى هذه المنطقة من المدن القريبة ٢٦ ألف نجار، وكان من معوقات البناء صعوبة العمل، والاستعجال، وبرد الشتاء، والحرائق، وفي ٢٩ كانون الثاني (يناير) توفي فجأة القيصر إيفان، الأخ الأكبر، فارتحل بطرس لحضور التشييع، لكنه عاد في الحال، مع أن قدمه تؤلمه بشدة، وأعطت الجهود والآلام النتيجة المطلوبة، ففي مطلع نيسان (أبريل) أخذوا ينزلون السُفن إلى الماء، ولم يكن عدد قليلًا: ٢٣ زورقا مجدافيًا وسفينتين و٤ صنادل اعتراضية، و١٣٠٠ قارب مسطح، ووصلت إلى فورونيج قوات باربعين ألف رجل، وفي ٣ آيار (مايو) تقدمت كوكبة طويلة من السُفن هابطة مع مجرى الدون، وركب الزورق المجدافي «برينتسبيوم» الكابتن

بطرس ألكسييف (القيصر) الذي بناه بنفسه، وبالإضافة إلى قوات بطرس كان من المقرر أن يحارب في معركة قوزاق الدون وزابوروجيه.

وفي أواخر آيار (مايو) بلغ الجيش الرُوسـي مواقـع العام الفائت، فجددها، وبدأ قصف قلعة آزوف، وانهمك ١٢ ألف شخص ليل نهار في تشييد سد ترابي ليكون أعلى من أسـوار القلعة، وحاول العثمانيون المحاصرون أن يعيقوا بنـاء هذا السَّـد الذي اقترح بنـاءه غـوردون، لكنهم صُـدوا، وأُعيدوا على أعقابهـم، وتم تطويق المدينة من جميع الجهات، وفي النهر قاتل الأسـيطيل الرُوسـي، في البداية كان القوزاق في سـفن غير كبيرة يدمرون السُّـفن العثمانية التي تفرغ حمولتها قرب أسـوار القلعة، ثم خرجت عمارة روسـية إلى عرض البحر، حيث تقف سـفن عثمانية كبيرة تقل ٤ آلاف من المشـاة واحتياطيـات الأغذية والذخيرة، فمنعتها من دخـول مصب الدون والوصول إلى القلعة المحاصرة.

وكان بطـرس يجول ويصـول في كل مكان، فقد رأى الناس «جندي المدفعية الأول» هذا على متون السُفن، وجنب أسوار القلعة يقصفها بنفسه مـن المدافـع، عرفـت شـقيقته ناتاليا بذلـك، وكتبت لـه عن قلقهـا عليه فأجابها: «أقول لك إنني شخصيًا لا أقترب من القنابل والرصاص، فهي نفسها تقـترب مـني، فاطلبي منها ألا تفعـل ذلك، ولكن مع أنهـا تقترب مني، فهي حتى الأن تفعل ذلك برفق وتأدب».

واستسـلمت الحامية العثمانية بعد أن يئسـت من الخلاص، واشترطت قيادتهـا الحفاظ على حيـاة جنودهـا وعوائلهم ومغادرة القلعة بسـلاحهم الشـخصي، لكن بطـرس أصر على تسـليم «الخائن ياكوب» يانسـين، وبعض المنشقين الفارين، وكسب المنتصرون ١٣٦ مدفعًا.

وبعـد مأدبة فخمة وألعاب نارية بهيجة أمر بطرس بترميم القلعة المدمرة الـتي دخلها الـرُوس في ١٩ حزيران (يونيو)، وسـرعان ما وجـدوا مرفأً صالحًا للأسـطول في تاغانروغ، وكتب القيصر فرحًا إلى الأمير رومودانوفسكي والحاشـية في موسـكو عن أنباء النصر، وفي رسالة إلى فينيوس أعرب عن

رغبتـه في إقامة قـوس النَّصر أثناء عـودة القوات إلى موسـكو «لتكريم القائد العام شين، وسـائر السَّـادة الذين بذلـوا جهدًا كـبيرًا للغاية طوال عامـين»، وكـان ذلك شـيئًا جديدًا على الرُوس، وغير معتاد بالنسـبة لهم، أما القيصر فيتدخل في كل تفاصيل الاحتفالات المرتقبة، حيث يقرر بناء قوس النَّصر و يحدد موقعه وكيفية سير المنتصرين وغير ذلك.

ترك القيصر حامية في آزوف وغادرها مع قواته في آب (أغسطس)، لكنه تأخـر في الطريـق، فلم يكن مسـتعجلًا، لأن قوس النصـر في العاصمة لم يكتمـل بنـاؤه بعـد، كان القيصر يتوقـف في ضيعات أشـياعه تارة، ويزور مصانع التعدين في تولا تارة أخرى، وفي أحد تلك المصانع في الطريق إلى فورونيج أخذ معه مسدسًـا أجنبيًا رائع الصنع، لكن ترباسه مكسور، وبحـث عن نيكيتا ديميـدوف الذي قيل له أنه أسـطى ماهر، وتعرف عليه وترك عنده المسـدس المكسـور، والأن في طريق العودة إلى موسكو ، جاء بطرس من جديد إلى ذلك المصنع وسـلمه الأسـطى المسـدس الآنف الذكر، تفحصه القيصر، وقال بمنتهى الارتياح:

- ما أروع هذا المسـدس، هل سـيطول بـي العمر حتى يصنـع رعاياي في روسيا مثله؟

فاعـترض ديميـدوف قائلًا: «ربمـا نحن أفضل مـن الأعاجـم. لم يعجب بطرس بهذا التباهي - كما ظن - وصفع الأسطى بشدة».

- في البداية افهم الحقيقة يا صاحب الجلالة ثم يمكنك أن تتباهى!

- في البداية افهم الحقيقة، يا صاحب الجلالة، ثم يمكنك أن تصفعني، المسدس الذي في يد جلالتك من صنعي أنا، أما المسدس الأجنبي فهذا هو- ومد يده إلى بطرس بالمسدس الأجنبي المكسور.

- اعذرني يا أخي، أرى أنك ماهر حقًا.

ومـن هذا المشـهد المتميز الذي كثـيرًا ما نصادف مثلـه في العلاقات بين الحاكـم الرُوسـي المطلـق ورعاياه، بـدأ كما تقـول الروايات علـو منزلة

آل ديميدوف، الذين غدوا فيما بعد من أصحاب المصانع في الأورال ومن أغنى الصناعيين في روسيا، ومُنحو ألقاب البارونات، فبعد ذاك الحديث والصفعة؛ أمر بطرس بأن يدفعوا إلى الأسطى من الخزينة خمسة آلاف روبل لبناء مصنع للسلاح، وفيما بعد برر ديميدوف الأمل التي علقها عليه القيصر، فكان على مستوى متطلبات البلد السريع التطوير.

...وفي أواخر أيلول (سبتمبر) وصل القيصر إلى كولومنسكويه بضواحي موسكو، كما وصلتها القوات المنتصرة، وأخبروه بأن قوس النصر جاهز، فدخل جيش بطرس العاصمة، ولكن ليس وسط رنين نواقيس الكنائس، كما في الماضي، سارت الأرتال عبر موسكو والكرملين ممتدة كيلومترات عديدة، ومرت تحت قوس النصر الذي يبلغ ارتفاعه عشرة أمتار، وهو مزين بمنحوتات ونصوص في مواضيع من الأدب الأغريقي (مارس وهرقل)، ومن الإنجيل، ولوحات وكتابات بخصوص حصار ودخول آزوف، وتقدم الموكب الأمير - الأب الروحي نيكيتا زوتوف في عربة فخمة، وتبعه ليفورت الذي لم يحقق المآثر في الحملة، فقد اشتد عليه المرض ولم يترك له مجالًا كبيرًا للقتال، وقد وصل إلى آزوف - كما لاحظ الجميع - في آخر الناس، وتركها قبل الآخرين، لكن تأييده الأخوي للقيصر، ومشاركته وتفاؤله الدائم كل ذلك لا يقل أهمية عما سواه، وسار بطرس نفسه في بدلة ألمانية سوداء، وقبعة بريشة بيضاء خلف ليفورت الذي يرتدي أثمن الثياب، وأثار بطرس بمظهره هذا دهشة أهالي موسكو، فالرُوس لم يتعودوا على رؤية قيصرهم بمثل هذه الهيئة قبل اعتلاء بطرس العرش، كانوا يرون القيصر بصورة شخص مهيب يضاهي الأله، يخيم عليه الصمت، وتحيطه الأسرار، أما الآن فالقيصر يسير ماشيا كجندي بسيط.

ثم يأتي الجنود يجرجرون ١٦ راية عثمانية استولوا عليها في آزوف، وكانوا يقودون عربة مكشوفة عليها ياكوب يانسين بثياب عثمانية، وجنبه مشنقة، وفأسان مغروزتان في قرمة، وعلى رقبة الخائن أنشوطة، وعلى صدره رقعة كتب عليها «مجرم».

انتهت الاحتفالات والولائم، وأعدم يانسين على مرأى من الناس، وكان من اللازم تثبيت الإنجازات، فاتخذت الإجراءات لاستيطان آزوف وتاغانروغ، ونزحت إلى هناك عوائل بكاملها من بسطاء الناس للإقامة الدائمية، كما توجه الجنود لتعزيز الحاميات، وعقد القيصر جلسة لمجلس دوما (البويار) في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر)، وقرر المجلس إرسال ٢٠ ألف شخص لبناء تاغانروغ، وأصدر المجلس قرارًا موجزًا وهامًا للغاية «ببناء السُفن البحرية». صحيح أن الخزينة خاوية، ولذا تقرر في جلسة الدوما في ٤ تشرين الثَّاني (نوفمبر) تشكيل شركات من ملاك الأراضي وأصحاب الفلاحين، أي من الإقطاعيين الأهليين والدينيين والتُّجار الأثرياء، وكان عليهم أن يؤمنوا بصورة مشتركة مستلزمات بناء ٥٢ سفينة حربية في غضون عامين، ولا يمكن لروسيا أن تثبت أقدامها عند البحار إلا بهذا العدد من السُفن.

كان بناء الأسطول المتكامل الكبير الذي يحول روسيا إلى دولة بحرية لا يزال بعيدًا، لكن الاستيلاء على آزوف كان هو البداية، وها هم الآن يواصلون السِّير بنفس تلك الوتائر السريعة جدًا، لقد صدر القرار وبدأ تأسيس الشركات، وراحوا يسجلون انتساب الأثرياء والوجهاء إليها، وبعث بطرس طلبيات إلى البندقية، وأماكن بحرية أخرى وأخذ أسطوات بناء السُفن يتقاطرون منها مندفعين بإغراءات الرواتب الضخمة، وبعد عامين، في تشرين الأول (أكتوبر) ١٦٩٨ توجه بأمر من القيصر إلى إيطاليا (البندقية خصوصًا)، وبريطانيا وهولندة ٦١ شابًا روسيًا، عشرون منهم من عوائل الأمراء، لدراسة قيادة السُفن «في حالة القتال، وفي الرحلات العادية»، ونصح المتفوقون في الدّراسة، والراغبون في تحقيق المزيد، بأن يصبحوا كذلك أسطوات في بناء السُفن، وخُصص لكل من أولئك الطلبة جندي أو عريف يتعين عليه أيضًا أن يدرس الشؤون البحرية، ويتضلع فيها على حساب الخزينة، وليس على حسابه الخاص مثل سيده، وعندما أملى القيصر أمره تصور طبعًا دموع الطلبة، وخوف واعتراض الوالدين المفجوعين، ولذا أملى بندًا خاصًا نص على رحيل هؤلاء الأشخاص من كل بد دون أية مماطلة، ويعاقب العاصي بحرمانه من الأراضي والأموال والرتب

والألقـاب، وتذمـر الوجهاء، وتذمر بسـطاء النَّاس الذين تقـع على كاهلهم بالدرجة الأولى أعباء مستجدات بطرس.

وفي عام ١٦٩٨ دشـنت السُّـفن التي نصت على بنائها قرارات الدوما وأوامر القيصـر، واسـتمر مرفـأ تاغانـروغ، وفكـر القيصر بشـق قنـاة تربط بين الفولغا والدون من خلال نهري أيلوفلا وكاميشينكا، لكن هذا المشروع ظل دون أن ينفذ، فقد غطت عليه مشـاريع وخطط أخرى، وكان عددها في ذهن القيصر بطرس كبيرًا جدًا...

وا نخـرط عـدد متزايد مـن النـاس في تنفيذ أفـكار ومبـادرات بطرس وأشـياعه، وبـإرادة القيصر عمل الآلاف مـن عامة النـاس، والكثيرون من أبنـاء الوجهاء في مختلـف الأماكن داخـل البلد الشاسـع وخارجه، ولكن كان هناك متذمـرون اهتم بتهدئتهم «الغول» رومودانوفسـكي، وأزلامه ورجاله، ولم يقتصر الأمر على «الغول» وأزلامه، فقد اضطر القيصر نفسـه إلى مواجهـة هـؤلاء العاصـين والمتآمرين، ففـي بداية عام ١٦٩٧ حـرر الراهب العجوز إبراهام- وهو من رهبان دير اندريفسـكي في ضواحي موسـكو- رسـالة انتقد فيها سوء سـلوك القيصر وسلمها إلى القيصر نفسه، وتناولت الرسالة «ألعاب القيصر المعظم التي لا موجب لها»، وعدم سماعه لنصائح أمه وزوجته وأقاربه والبويار، وطلب الراهب العجوز مقابلة شخصية مع القيصر ليوضـح له وجهًا لوجـه تصرفاته الشـائنة، ويدله على الصراط المسـتقيم، وبـدلًا مـن ذلـك وجد العجـوز نفسـه في براثـن الأمـير رومودانوفسـكي، واعترف تحت التعذيب بأنه يجتمع في حجرته بالدِّير مع ما يشـبه العصبة مـن المتذمرين، الذين يتناولون بالشـجب والتحليل أحداث البلاط، وسـلوك القيصر الذي يلتقي بالأجانب، في حين لا يليق بالشـعب الرُوسي أن يفعل ذلك، ويقولون أن القيصر يحضر التعذيب ويشارك فيه شخصيًا، ويشجب المتذمـرون زيـارات القيصر الكثيرة إلى حـي العجم، وولعه ببناء السُـفن، ومشـاركته في اسـتعراض القوات، فلا يليق ببطـرس أن يفعل ذلك، فهو قيصـر على أيـة حال، وكانت عقوبـة أفراد العصبة خفيفة نسـبيًا، فقد ضربوهم بالسِّياط ونفوهم.

وكانت هناك عصبة أخرى من المتذمرين لم يكن نصيب أفرادها عقوبة خفيفة كهذه، وأفراد العصبة هذه المرة من المدنيين الذين يحتلون مناصب كبيرة نسبيًا، وقد تزعمهم مقدم من القوات الخاصة اسمه تسيكلر، وهو أجنبي متروس، التزم في أحداث ١٦٨٢ جانب صوفيًا وآل ميلوسلافسكي، وبعد سبع سنوات انتقل إلى صف بطرس على أمل الحصول على ترقية سريعة في الخدمة، وبالفعل حصل على رتبة عالية، وصار آمرًا لفوج من القوات الخاصة، وخدم فترة في قرية سيبيرية نائية، ثم في آزوف وفي مشروع بناء مرفأ تاغانروغ، وكان ذلك قليلاً على هذا الإنسان الطموح الذي يحلم في ترقية سريعة في العاصمة، وكان يعتبر تعيينه في المناصب التي خدم فيها عقوبة، زد على ذلك أن اثنين من أبنائه أُرسلوا للدراسة في الخارج مع سائر الذين ارغموا على ذلك، لكن القيصر على ما يبدو لم ينس صلاته القديمة بآل ميلوسلافسكي، ولذا فضل ابعاده عن موسكو، فاضمر تسيكلر غيظًا تحول إلى حقد على القيصر، وبمر السنين اشتد هذا الحقد، فدفعه إلى وضع خطة لقتل بطرس، وراح يقنع أفراد القوات الخاصة:

- عندما يغادر القيصر مديرية العلاقات الخارجية يمكنكم أن تتربصوا به وتقتلوه.

وبالإضافة إلى بعض آمرى القوات الخاصة، وممثلي قوزاق الدون الذين يحلمون بالانتفاضة على بويار موسكو شارك في المؤامرة سوكوفنين، وهو من أنسباء تسيكلر، والبويار بوشكين وكذلك أقرباؤهما.

وتسرب نبأ المؤامرة إلى بريوبراجينسكويه، وكان بطرس يتهيأ للسفر إلى الخارج، فأجّل سفره وراح يشارك في التحريات، وفي استجواب المذنبين الذين تعرضوا لتعذيب لا رحمة فيه على مرأى منه، ويبدو أن ذكريات انتفاضه القوات الخاصة وآل ميلوسلافسكي وآلام عهد الطفولة قد أثارت غضبه، وأعدم في بريوبراجينسكويه المتآمرون الرئيسيون تسيكلر وسوكوفنين وبوشكين، واثنان من آمرى القوات الخاصة، وأحد القوزاق، وصدر حكم مجلس الدوما بهذا الخصوص في ٢ آذار (مارس)، ونُفذ حكم

الإعدام في اليوم التالي، وقد حدد القيصر نفسه حكم الإعدام وكيفية تنفيذه، في البداية استخرجوا من القبر تابوت ميلوسلافسكي الذي يعتبره بطرس ـ إلى جانب صوفيا ـ زعيمًا لعصيان أفراد القوات الخاصة في عام ١٦٨٢، كما يعتبره الآن ملهمًا فكريًا لمؤامرة تسيكلر، ووضعوا التابوت على زحافة تجرها الخنازير، وأوصلوه إلى بريوبراجينسكويه، ووضعوه تحت منصة الإعدام، وسالت دماء المتآمرين على رفات ميلوسلافسكي، وفي اليوم التالي عرضت رؤوسهم مغروزة على أعواد في العاصمة ليراها الناس وترتعد أوصالهم.

ظل شبح عصيان القوات الخاصة، ودسائس صوفيا والخصوم الآخرين يلاحق بطرس أمدًا طويلًا، وظل هذا الرجل الذكي الفذ حتى آخر عمره دون أن يفهم أن هناك فارقًا بين أخته المتسلطة وأشياعها الوصوليين المتكابرين وبين سائر أفراد القوات الخاصة وغيرهم ممن تعرضوا للإهانات، ولم تكن لهم في أوضاعهم العصيبة التي لا تطاق أحيانًا أية صلة بسائر آل ميلوسلافسكي وخوفانسكي وغيرهم من الوجهاء، فإن تذمر هؤلاء وأولئك من النظام القائم ومن سير الأحداث له أسباب مختلفة؛ مثل اختلاف مطامح ومطالب الطرفين، إن لقوانين السُلطة والصراع من أجلها أشكالًا خاصة تتجلى فيها، وغالبًا مالا تسر الآخرين، وهذا ما شعر به الرُوس بالكامل على اختلاف مراتبهم، من وجهاء و«وضعاء»، في بداية عهد بطرس الذي نعته المؤرخ الرُوسي المعروف م. بوكروفسكي ذات مرة بأنه أقسى أبناء آل رومانوف، كما شعروا به في السنوات الأخيرة من حكمه.